القبور المتحركة ..

قصة بقلم محمد رؤوف بشير

اغلق مكتبه في المساء وانطلق الى منزله مشتت النفس ، موزع البال بين الاماكن العديدة التي يجب ان يكون فيها خلال عملية الموت ، والدفن والتأبين .

انه يكره التعازي ، ومناسبات الوفاة ، وتوديع المسافرين ، وكل ما يمت الى الرحيل بصلة ، وها هو يجد نفسه مسوقا بقوى خفية، تدفعه الى المقبرة ليشهد بعينيه مغادرة الروح لجسد مهزوم في معركة القدر ويشارك في ارساله الى مجاهل الوحدة والظلام .

كانت جنازة مخلوق من نوع خاص ، ربما مخلوق دولي ، وجوده المتأصل في كل مكان من هذا العالم يفرض على كل انسان كل شيء، ان يساهم في اقتلاع ادق خلاياه وجذوره من حياته ليلقي بها بعيدا عن ظلاله ، بعد ان كانت يوما بذرته ، وبرعمه ،وشجرته الوارفة النضرة .

كانت الساعة تقارب التاسعة ، وعلى طول الطريق ، كان ينظر بأسى الى اولئك الناس الذين بدوا له وكأنهم يعبرون عن حزنهم بطريقة خاطئة .

وتساءل فيما اذا كان قد الم به مرض مفاجيء ، وهو يشعر بان الارض وكل ما عليها اخذت تدور وتتحرك باتجاه معاكس ، ثم عاد واكد بينه وبين نفسه انه لن يدرك الحقيقة سواه ، لانه الوحيد القادر على الخروج احيانا عن فلك الناموس الاجتماعي تماما كما فعل عشية مصرع زميله الضابط ، عندما غادر المستشفى الى احد الملاهي ، فاحتسى اقوى الخمور ، ورقص ومارس الحب حتى الصباح، ثم عاد وهرب في موعد تشييع جثمان اخيه في السلاح هائما على وجهه في الشوارع والطرقات يبحث عن تلك الحقيقة الضالة املا في التقاطها .

استقبلته زوجه في مدخل البيت ، لم يدهش للمنظر القلق الذي بدت فيه ، وان تشابك التعليل لديه واختلف بسبب احساسه بالذنب، وكأن نواياه في التملص للقاء اصدقائه كانت مكتوبة على جبينه فتابع سيره صامتا حتى وصل الى البهو .

كانوا خمسة اشخاص ، احدهم والده ، والاخرون رفاق العمر، اصغرهم في عامه الثمانين .

« حسنا هؤلاء ايضا يريدون ان يشتركوا في لعبة السفر البعيد ...»

مجلس الشيوخ ، كما تحلولهم التسمية يعيشون فوق حدود الاعتراف بهم من اية امة او دولة ، كان الاول ضابطا في الجيش العثماني ، طويلا نحيلا ، منتصب القامة رغم اعوامه الثمانين التي يحملها على كاهله مع الحروب التي خاضها في « الدردنيل » «وجناق قلعة » دفاعا عن خليفته ، اما الثاني فقد كان طبيبا خاصا لاحد كبار المسؤولين في الحكومة تقرأ في شكله الصورة المجسمة لطبيب متقاعد ، صلعة كبيرة ، وكرش مندفع، وقصر في القامة والنظر تكمله نظارة هيكلية انتصبت بطريقة بهلوانية على ارنبة انفه حتى غدت جزءا منه .

بينما كان الثالث سفير الامبراطورية الواسعة حيث كان اخر عهده بها منذ ان طردته وزارة الخارجية بسبب قدرته الفائقة على التقاط السيدات الاوروبيات دون اية امكانية او رغبة في التخلص منهن او في تغطية فضائحه الكثيرة .

اما الآخران فيمثلان نهاية الاقطاع والعطالة الوراثية .. ولدا متقاعدين ، وعاشا متقاعدين ولا زالا ـ مستمرين في حياة التقاعد الطفولية من بقايا ايرادات قديمة ثابتة لم تتسرب اليها يد الاشتراكية حتى اليوم .

اما وانه قد احتوى بلمحة صغيرة تاريخ زائريه فقد تذكر ان الصورة قد بدت ناقصة مشوهة بعد ان فقد مجلس الشيوخ وعلى فترات قصيرة متعاقبة ثلاثة من اعضائه ، سقطوا في احتفالات مشابهة كان آخرها على مائدة « كونكان » عندما لم يفلح قلب احدهم في احتمال رؤية « الجوكر » وهو يطل من بين اوراق زميله في اللعب فتوقف فجأة عن الخفقان ورفض كل محاولات الطبيب في اعادة الحركة اليه .

ومن يومها صمم اعضاء المجلس بصمت وهدوء، ودون اي حوار في لحظة واحدة ، موقعين على اتفاق ضمني بأن لا يجتمعا ليلا في العيادة العتيقة التي يختبيء الموت فيها ابدا .

صحا على عبارات الترحيب ، وهمست زوجه بان كل شيء جاهز، قالتها بعصبية وتجهم ظاهرين .

فانتقل الجميع وئيدا ، واحدا خلف الاخر ، ليأخذ كل مكانا بدا وكأنه متفق عليه سلفا وثابت لا يتغير كعرف انكليزي .

غريب هذا النوع من مراسيم الدفن ، غرفة مزدانة بالمصابيح الملونة ، وطاولة عامرة بالمأكولات والمشروبات الكحولية .

« يبدو ان فكره ما يزال يعمل بطريقة مغلوطة ...»

ولم يكد يجلس على الكرسي الخالي الى الطاولة حتى اخذقلق زوجه وعصبيتها يتسربان شيئا فشيئا الى نفسه ، ربما بسبب هذه الزيارة غير المنتظرة او غير الملائمة بمعنى ادق ، فأخذ يعد العدة لان يغادر المنزل ويهرب من متحف التاريخ هذا الى رفاقه في احد المرابع الليلية ، دون ان ينسى العودة الى زوجه ليستقبلا معا في الوقت المحدد ميلاد السنة الجديدة .

ورفع احد الاعضاء كاسه وهو ينهض متثاقلا متكسرا تكاد تسمع معه فرقعة عظامه ليقول ؟

ـ في صحتكم .. عقبال كل سنة وانتو سالمين ..

ورفع الجميع الكؤوس بأيد مرتجفة ، وهم ينقلونها الى شفاههم الباهتة ، خلال طريق وعر طويل .

« كم مرة سوف ترتشف هذه الكؤوس ،كم مرة رفعت حتى الان؟

سعادة حقيقية ان يعد العمر بالسنين ، ومأساة حقيقية ان يبدو بتلك الضآلة الى درجة العدم ، ومأساة كبرى ان تلهث وراء عام جديد سيخونك كسابقيه .

نهض عن المائدة فجأة ، وانطلق الى الباب بسرعة وهو يؤكد لزوجه انه لن يتاخر بينما انحدرت الدموع من عينيها وهي تقول له ..

ولم يجب ، ليس لديه ما يقوله ، يكفي انه افلت من المتحف الكئيب ، وان فكره سوف يعمل بطريقة افضل ، طريقة صحيحة اذا عرف كيف يهتدي الى المكان المناسب للقاء ذاته مع الزمن .

في الشارع استقبلته نفحة باردة من رياح كانون ، ادخل يديه في جيبه ، رفع قبة المعطف يغطي بها رقبته ، وسار باتجاه المربع البعيد .

كان الشارع خاليا الا من السيارات الممتلئة بالركاب تسبقها اضواؤها الى اماكن اللهو .

واخذت البرودة تسري في اوصاله تذكره بطول الطريق ووحشته الى خارج البلدة ، وبحركة آلية تلفت حوله يبحث عن مخرج كان عليه ان يكون منصفا فيوزع وقته بين المربع حيث ينتظره الاصدقاء وزوجه القابعة في البيت مع اعضاء مجلس الشيوخ .

والتقت عيناه خلال عملية الالتفات بانوار سيارة قادمة ظل يحدق فيها لفترة ، وقبل ان يغذ السير متلفتا تجاوزته العربة قليلا ثم عادت متراجعة الى الوراء ، توقفت الى جانبه ، فتح الباب وانطلق من داخلها صوت يدعوه اليه، فصعد ليجد احد معارفه ، بائع الاحذية وهو يتطوع بنقله الى حيث يريد .

هذه هي المقايضة العادلة ، صانع الاحذية ينقلك بسيارته المريحة تقديرا لرأسك المليء بالافكار من ان يتعرض للبرودة وهو يتدحرج على الارض بلا سيارة ، مجرد مقايضة صحيحة بين رأس مثقف وحذاء جيد ».

وراعه ان فكره عاد الى سيره في الطريق المعكوس ، فنزل من السيارة دون ان يشكر صاحبها .

كان المربع قد بني على ربوة عالية يطل منها على المدينة المستلقية في قلب الوادي ، ولم يكن في منظره ما يفصح عن هويته فهو قد بني على نحو يمكن ان يكون « فيللا » كبيرة تصلح للسكن كما يجوز ان يستخدم كملهى او مكان للاحتفالات وحتى يستطيع الانسان ان يجعل منه مزارا لشيخ ، او ضريحا لشخصية خطيرة اذا شاء ، وكان مالكه اراد ان يحتاط لنفسه من غوائل الايام وقوانين التأميم بعد ان صرف في تشييده كل ثروته فبناه على هذا الطراز الذي لا تنقصه المرونة للتعديل والتصرف حسب الحاجة .

اخذ يصعد السلم الرخامي، مرورا بالحديقة الصغيرة ، وبركة الماء الى ان قادته قدماه عبر مدخل زجاجي الى البهو الواسع حيث رصت الموائد بعضها الى بعض في اطار من الزينة الملائمة .

كان بعض الرواد قد احتلوا اماكنهم ، بينما كان بعضهم الاخر لا يزال يتحرك بصعوبة باحثا عن محل مناسب .

نساء ورجال في سن الشباب ، وفي ازياء مختلفة اتفقت لدى السيدات فقط في كشف اكبر قدر ممكن من اجسادهن لتحظى « بمطالع » العام الجديدة عدا ما انحسر منها واختفى تحت الطاولات مع الف امنية بالشفافية ،اوقدرة العينين على اختراقها .

واحس بالدفء يسري في عروقه الباردة ، هنا مكانه الحقيقي، وزمنه الخالد حيث تدفن الاحزان ، وذكرى وحشة الاعوام وتنسى المتاحف ، ويحتضن العام الجديد قبلة على شفة عذراء .

رتلفت حوله يبحث عن رفاقه فوجدهم وقد انتبذوا مكانا في زاوية بعيدة عن المكان المخصص « للعائلات » بعد ان تخلوا مثله عن جوازات مرورهم الى اماكن الاسر الفاضلة في المنزل .

حياهم بهزة من رأسه وجلس بهدوء .

اخذت عيناه تجولان في المكان وراء طفرة السعادة المجهولة التي اشرقت فجاة في اغوار نفسه مع لمحة الجمال العاري، ولفتت نظره مائدة كبيرة تتوسط البهو ، اوحت اليه بالثراء الواسع بما احتوته من زجاجات المشروبات والطعام ، وقد جلس اليها خليط من الرجال والنساء في اناقة مسرفة ، وبهرج ظاهر كادت رؤيته لهم تدفع به في اروقة الاحلام الوردية عندما تبين فيهم عاهرات محترفات ،وفوادين ولم يعد ، لديه حاجة لمعرفة الباقين وقد تسربت الى رئتيه رائحة العفونة النتنة من دهاليز الجنس في مدينته الصغيرة ، فأدار وجهه الى طاولة اخرى ليجد عجلات بلدته قد تدحرجت واجتمع حولها ، مصلحون ميكانيكيون تعرفهم ابدا من حركات ايديهم اللولبية ، واصوات زوجاتهم المرتفعة ، وكأنهم لم يغادروا ورشاتهم حيث قبضوا منذ دقائق خلت اجورا باهظة ثمنا لاصلاح عربة جيء بها من مقبرة السيارات بعد ان منع استيراد بديل لها من المصنع .

ووراءهم تماما نفر من رجال الامن جاؤوا يدفنون متاعب العمل الطويل ، او ربما حضروا بمهمة استقبال العام الجديد في موكب رسمي ، لعلها البهجة الوحيدة على مدار السنة .

غير بعيد عن هؤلاء استطاع ان يلمح اسرة لا تزال تحمل اسمها الفارغ الكبير كشيك بدون رصيد بعد ان فقدت اطيانها الواسعة ، فاستعاضت عنها بعشيق ابنتها الكهل ليغطي نفقات احتفاظها بمظاهر جاهها الضائع المريض .

وتوقف برهة :

« هذا العشيق العجوز هو الانسان الوحيد الذي يحتفل بطريقة صحيحة بعد ان خلط اعوامه السبعين بربيع عشيقته العشرين، فأخذت ساعة ابامه تدور الى الوراء ، الى البداية المشرقة من اعوامه المنصرمة ليجد له مكانا في حفل الشباب ، هذا ، تاركا مكانه في مجلس الشيوخ يبحث عن صاحبه ، بينما يسعى سواه وهو يضحك بغباء سائرا نحو نهايته . العفنة مع اطلالة كل عام.

احس بالزيف والقرف ، اشاح بوجهه الى الجهة المقابلة يبحث عن خيط رفيع يسليه ويبعد عنه افكاره السوداوية ليبقى بعد ان ايقن بالعجز عن فرار جديد .

رجال فقط ، انصاف مراهقين لفتوا نظره لوجودهم غير الطبيعي وحدهم في قلب المكان المخصص « للعائلات » ، واذا بهم بعض زملائه الذين تسلقوا سلم الافكار التقدمية الى الوظائف العالية بسرعة مذهلة فجاءوا الى هنا ليثبتوا صحتها عن طريق فرض مكان لهم وهم ينثرون هيبتهم ويبعثرون الاموال بغير حساب ،دون ان يعرف احد كيف عمرت بها فجاة جيوبهم الخاوية ، بينما يجلس هو بعيدا في زاوية كئيبة خاليا الا من افكاره المثالية التي لم يجد لها ثمنا في اي سوق .

غمرته موجة من خيبة الامل ،وغشي عينيه الظلام والدخان ففركهما جيدا ليجد قريبا منه اسرة قد تسربلت نساؤها بالملاءات السوداء والاوشحة والبرافع لا تكشف الا عن وجوههن المحصنة التي اختفى معظمها خلف زجاجات « الويسكي » و « الشمبانيا » دون ان تقدر على انتزاع هويتها المحافظة على التقاليد والدين.

« كرنفال رهيب .. جملة قرأها على وجوه بعض الاجانب الذين حضروا مع رفيقاتهم للاحتفال بهذه المناسبة بعد ان كانوا يعتقدون ربما الى دقائق خلت ان الجمل والصحراء هما الشيئان الوحيدان اللذان سوف يشبران فضولهما في بلاد الشمس المحرقة .

منذ ساعات قليلة ،او عام ، وربما اكثر ، وهو يحاول عبثا ان يجد لنفسه المكان الصحيح ، خلال زمن سعيد ، وها هو يجد نفسه مصلوبا خارج حدود الزمن ، بعيدا عن اي مكان ، وهو يعيش هذا التناقض المأساوي في جو لا يحمل حتى طهر المقابر وصمتها .

وفكر في العودة الى مجلس الشيوخ ، ودفء المنزل ، وحنان زوجه عندما بدأت الموسيقى بانغامها ـ المتنافرة ضجة ، مترفقة حينا ، وقوية حينا آخر وهي تسقط على الاذان بعد ان ذوبها الكحول والطعام الدسم نشوة مثيرة ، فقامت الاجسام تتمايل ملتصقة بعد ان ارغمها الازدحام ، والهيجان المجنون على تجاوز كل القواعد.

« مجلس الشيوخ هناك يجتر ذكرياته كوهم بعيد ، يحلم بسنة ، بيوم، بلحظة ، يعلل النفس بانها قد تكون افضل من مرحلة الشباب النضير الذي انقضى دون ان يقرأ افراده الغربة في جلود وجوههم

المتفضنة ، وعظامهم النخرة التي غادرتها الحياة الى غير رجعة،وهؤلاء هنا يرقصون ويضحكون لرشفة الكأس التي سوف تقودهم قبل ان تتجاوز البلعوم الى نفس المصير ، فلا يدركون اعاشوا دهرا املحظة اما هو فلا يزال تائها في مداره اللانهائي وزمنه السرمدي يبحث عن اشياء لا وجود لها .

ومرت بخاطره صورة جنازة حقيقية ولم تكن ابدا سقطة العام الصريع وهو يحنط ، او يحرق في مبخرة هندوسي لتذروه الرياح في ارجاء العالم كما يريد هؤلاء المحتفلون .

ادركه السأم فنظر الى ساعة يده ليجد انها تشير الى الحادية عشرة والنصف ، نهض وهو يبغي الهرب عندما توقفت الموسيقى فجأة ، واخذ الراقصون حولهم وقد انبعث من« الميكروفون» صوت مترنح بدا صاحبه وكأنه يبذل جهدا ليجعله قويا واضحا وهو يقول :

ـ ايها الحفل الكريم ... في هذه الامسية الدافئة : ... التي تستعدون فيها لاستقبال عام جديد مليء بالخيرات والبركات ـ باذن الله ـ لا تنسوا ...

توقفت قليلا ، تنحنح .. سعل .. ثم رفع صوته :

ـ لا تنسوا ان هناك اخوانا لكم يعبرون المياه الباردة الى الارض المحتلة دفاعا عن كرامتكم المهدورة .. وانسانيتكم المفقودة ..

انتهت جماعة الى الكلام البليغ ، فارتفعت اكفها بالتصفيق الحاد، وتبعهم آخرون على موجات متلاحقة حسب درجات الصحو والثمالة وبحكم العدوى لا اكثر .. تهيأت الفرصة لمراهق فسرق قبلة من خد احدى العاهرات التي تهتز وتضحك لجرأته.

ضاع صوت الخطيب في خضم الضجيج ، وعادت الموسيقى وقد افلتت من عقالها فتابعت الاجساد رقصها المتداخل النشوان .

تكثف الضياع يغمر كل احاسيسه ويملأ صدره بالضيق حتى اوشك ان يختنق ، لم تشرق شمس ضاحكة يوما ، ولم يطف بذهنه خيال ربيع ، لم يسرق قبلة ، لم تمر به لحظة من سعادة دافئة، ولم يعبر المياه الباردة دفاعا عن كرامة شعبة الضائعة .

واحس فجأة ان عمره قد تضاعف بل زاد فاضحى في الثمانين وليس في الثلاثين وان مكانه الصحيح ليس الا في مجلس الشيوخ او مقبرة مهجورة .

لم يحتمل اكثر ، فتسلل بهدوء دون ان يشعر به احد من زملائه، ليتوقف في حديقة المربع بجوار بركة الماء ، استنشق بعمق الهواء النقي المنعش واحس بالراحة .

نظر الى السماء ، كانت صافية تتلألأ فيها النجوم وتبتسم ، وعلى سفح التلة كان الوادي يحتضن مدينته الصغيرة بحنان غمرته نشوة طاغية وطافت بروحه ذكرى حلوة لحب جميل ولد في ليلة مماثلة فامتدت يده الى زهرات ياسمين ناصعة بللها الطل جمع قليلا منها في كفه ، اطبقها عليها وضمها الى صدره مغمضا عينيه وهو يتلو صلاته امنيات بصحة عارمة وشباب دائم وحب دافيء .. دافيء كدفق الدم في القلب بينما كانت اجراس الكنائس تعلن في كل مكان ميلاد عام جديد . وعندما فتح عينيه وجد السماء ما تزال تشعشع بالامل والحياة .

هبط الدرج بخفة وسرعة ، قفز الى سيارة اجرة متوجها الى منزله ، وعلى الباب استقبل زوجه بقبلة ، وضع الياسمين في يدها وانطلق الى غرفة الطعام .

كانت عيون اعضاء مجلس الشيوخ مسمرة كالكهوف على كؤوس المشروبات ، ووجوههم المتفضنة مليئة بالشعر الذي اجالها الى قطع من المومياء او تماثيل في متحف الشمع ، بينما كان رأس احدهم قد سقط على الطاولة والزبد قد تكوّم على حافة فمه .

حلب

محمد رؤوف بشير

اخر منشورات دار الاداب ـ بيروت

* **احزان حزيران**
  مجموعة قصص
  لسليمان فياض

* **الزحام**
  مجموعة قصص
  ليوسف الشاروني

* **ما العمل ؟**
  رسالتان الى الشباب العربي
  للدكتور عصمت سيف الدولة

* **محمود احمد السيد**
  رائد القصة في العراق
  للدكتور علي جواد الطاهر

* **عن الرجال والبنادق**
  مجموعة قصص
  بقلم غسان كنفاني

* **بدر شاكر السياب**
  مختارات من شعره
  قدم لها أدونيس

* **علي محمود طه**
  مختارات من شعره
  قدم لها صلاح عبد الصبور

* **ثم تعود الموجة**
  مجموعة قصص
  لديزي الامير